قضايا الأدب والأدباء

كتب شاعر المقاومة محمود درويش في العدد السادس من مجلة « الجديد » التي تصدر في اسرائيل (حزيران ١٩٦٩) هذه المقالة التي تنقلها « الآداب » لتشير الى الحس النقدي المرهف الذي يتمتع به الشاعر والى وعيه ابعاد الحركة الادبية في الوطن العربي كله .

قد يبدو هذا الحديث نشازا في جو الانسجام البارز بين حركتنا الادبية هنا وبين الكتاب الذين اولوها جل ما لديهم من امكانيات ووسائل النشر والتعميم على مساحة الارض العربية الواسعة . لقد كان من حق حركتنا الادبية ، بما تمثله من صراع ناسها مع واقعهم الخشن ، ان تفرح وتعتز بالمكانة الطيبة التي احتلتها في مسيرة الادب العربي العامة ، وكان من المقدر لهذا الاهتمام المشرف بشعرنا خاصة ، ان يزود شعراءنا بقوة جديدة من دوافع السعي نحو الابداع ، وان يحملهم مزيدا من المسؤولية والاجتهاد الدائم لتحقيق انجازات ادبية اكبر . فان المراقبة الايجابية لاعمالهم ، بهذا القدر من التقدير ، لا تحتاج الى كثير جهد للاشارة الى الدور الذي بوسعهم تأديته في حركة الادب العربية . ولعلنا في غنى ، الآن ، عن تسجيل مجموعة المدلولات الثمينة لما يشبه التهافت على هذا الشعر في المجلات والصحف وادوات الاعلام في العالم العربي . ولكننا لن نمل تكرار القول ان طرف الخيط في هذه المسألة هو الاندماج او الالتحام التام بين الكاتب وواقعه . لم يكن ادبنا خارق الموهبة حين عرف كيف يختار مكانه في حركة الصراع . ان المواجهة الحادة واليومية كانت اعنف من أن تتيح لنا فرصة الوقوف طويلا أمام ابواب المدارس الفكرية المختلفة . ولعل هذه الخاصة ، بما تفرع عنها من جوانب، هي اللافتة التي استوقفت المراقبين في العالم العربي . فعندما كان قسم كبير من اخواننا الكتّاب خلف حدود بلادنا يعطفون على القضية الفلسطينية ويتضامنون مع ضحاياها كان القسم الاكبر من كتابنا يعيشها ويذوب فيها . وحين حلّت نكبة حزيران وشاعت عدوى الاحساس بالمأساة ، ثم سقط طرفا حبل كان يلوح على مساحة معينة من الفكر العربي هما : الطبل .. والتمارض العصري ، ثم اقتحمت ضرورة مواجهة الحقيقة بشجاعة كل مواطن ، وصارت المجابهة والصراع قدرا ، وانهارت قيم سياسية واخلاقية كثيرة .. عندها ارتدى الاهتمام بما يكتب لدينا من شعر وقصة طابعا جديدا يمتاز باكثر من حب ، أضفى على الكثيرين من النقاد والكتاب ميزات العاشق القديم الذي لا يرى في الحبيبة الا ما يبرر العبادة . وقد نتجت عن ذلك اشكال من سوء التفاهم

انقذونا من هذا الحب القاسي !

بقلم محمود درويش

تحرضنا على هذا الحديث الذي قد يبدو نشازا في جو الحب العميق . ولكن لا يجوز لنا ، ونحن نقف في دائرة هذا الاهتمام ، الاستمرار في تلقي مظاهر كل هذا الحب دون ان نقول : شكرا ، أولا .. وان نعترف ، بصراحة العاشق العصري ، بأننا لسنا أهلا للتقديس في زمان لا يجوز فيه التقديس كما لا يجوز فيه اليقين المطلق .

ان اخطر ظاهرة تستوقفنا في هذا السياق ، هي ان وتيرة الحب قد اوصلت بعض المراقبين الادبيين في العالم العربي الى محاولة وضع شعرائنا ليس في مكان أوسع منهم فقط ، وانما الى محاولة وضعهم على امتداد مساحة الشعر العربي المعاصر بحيث يفطونها كلها . ان ما في هذه المحاولة من خطورة يتعدى حدود المبالغة الفنية والتنكر غير المسؤول للواقع الى الاعتداء على حركة تاريخ . ولا يغفر لهذا الموقف كونه ناشئا عن نية طيبة وحماس حقيقي، وعطف عميق على ظروف الحركة الشعرية في بلادنا . ولعل جذور الخطأ الذي اوصل الى مثل هذا التطرف في معاملة شعرنا هي اسقاط انتماء هذا الشعر الى حركة الشعر العربي العامة في ماضيها وحاضرها ، وتسليم اصحاب المبالغة والتطرف بالاعتقاد بان هذا الشعر هو بمثابة صاعقة انفجرت فجأة . ان شعرنا غير منقطع ابدا عن حركة الشعر في البلاد العربية ، وان كان غير مواكب لها مواكبة يومية. وشعرنا ليس ندا او بديلا للشعر العربي المعاصر .. انه جزء غير متجزىء منه ورافد من روافد النهر الكبير . لقد تربينا على أيدي الشعراء العرب القدامى والمعاصرين ، وحاولنا اللحاق بأسلوب الشعر الحديث بعدما تعرفنا على رواد هذا الشعر في العراق ومصر ولبنان وسوريا . ونحن لا يمكن الا ان نعتبر انفسنا تلامذة لاولئك الشعراء . ولا يصعب على الناقد ، حتى الآن ، العثور على بصمات هؤلاء الشعراء على اكثرية انتاجنا . ولكن المسألة ، كما نراها ، ليست صعوبة الرؤية لدى الناقد ، وانما هي ان الناقد لا يزال مشغولا بالفرح الذي يملأه نتيجة اكتشافه هذا الشعر دفعة واحدة ، ولا يزال العطف على الشباب الذين يكتبون هذا الشعر ، في ظروفهم السياسية الخاصة ، هو المعيار الاول في عملية نقد شعرنا . وقد يكون لهذا الدافع ما يبرره في فترة ما ، ولكن امتداد هذه الفترة محاط بالمحاذير التي تخلق نتائج ضارة قد تتطور الى ما يشبه الخداع .. خداع القراء العرب ، وخداع شعرائنا انفسهم الذين يواجه بعضهم خطر الاحساس بالكمال . ولذلك ، فان الضرورة تلح على وضع حركة الشعر في بلادنا في مكانها الصحيح . والضرورة تلح ، باديء ذي بدء ، على

معاملة هذا الشعر على انه شعر ، بالتخفيف من تسليط الضوء على شخصيات الشباب الذين يكتبونه . ولا نعني بذلك اسقاط الرابطة بين النماذج الشعرية وبين الظروف التي فرزتها او التي جرت فيها عملية خلق هذه النماذج ، وانما نعني انه آن الاوان لاجراء عملية موازنة ، بالتأكيد على استخدام المعايير الفنية لا السياسية وحدها . فان الموضوع المطروح على بساط البحث ، في آخر المطاف ، هو الشعر لا الاخلاص ولا النوايا الطيبة . ثم ، ان الزاوية السياسية في هذا المجال تفتقر الى ضرورة التأكيد على ان هذا الشعر الثوري لا يعبر عن ثورية اصحابه معزولين عن حركة جماهيرية يعبرون عن صراعها . اي ان هؤلاء الشعراء ليسوا مجموعة من اشجار النخيل النابتة في صحراء قاحلة . ان كونهم شعراء يملكون اصواتا مسموعة لا ينبغي ان يخلق الانطباع بوحدانيتهم وبانقطاع انتمائهم الى جماهير تملك ماضيا وحاضرا ثوريين . انهم ابناء هذه الجماهير وهي التي ربتهم واعطتهم الجذور .

ومن حقنا ان نرى ان دورة الالتباس ، فيما يتعلق بمكانة حركتنا الشعرية من حركة الشعر العربي العامة ، تبدأ من انشغال المواطن العربي ، بكل حواسه ، بالقضية الفلسطينية وبالنزاع الاسرائيلي ـ العربي . فقد كان من نتائج حرب حزيران ان مشاغل المواطن العربي كلها ، باستثناء ما يتعلق بمعركة تحرير الارض ، قد وضعت في الظل وفي مرتبة دنيا من الاهتمام . وقد انعكس ذلك على معاملة المواطن للادب ايضا ، ولان شعرنا صادر من لحم القضية الفلسطينية فقد حظي بالقدر الاكبر من الاهتمام ، ودفع حتى بعض الكتاب والنقاد الى اجراء عملية مفاضلة بينه وبين مجموع الشعر العربي المعاصر . ان الخطأ يكمن في مجرد اجراء عملية المفاضلة ، فليس من الضروري ولا ينبغي ان تكون القضية الفلسطينية ، منذ نشأتها حتى حزيران ، هي المحور الاوحد الذي يدور حوله كل الادب العربي المعاصر . والا ، فاننا نصاب بأقصى اشكال ضيق النظر ، ونعتبر ان كل التطورات السياسية والاجتماعية في العالم العربي ، منذ ما يزيد عن عشرين سنة ، غير جديرة بتعامل الاديب معها ، او نعتبرها ضربا من ضروب الكماليات لمجرد عدم التصاقها المباشر بقضية فلسطين . ولعلنا لا نختلف على اعتبار هذا الموقف تنكرا لمسيرة التاريخ العربي . ومن هنا ، لا يمكن تقويم اعمال الشعراء العرب بميزان مدى تفاعلهم مع قضية فلسطين ، كما ان احدا لم يجر مثل هذه المحاسبة مع الشعراء العرب في مدى اشادتهم بالثورة الجزائرية مثلا او التحولات الاجتماعية العميقة في الجمهورية العربية المتحدة وغيرها . واذا لم يكن مفر من اجراء عملية المفاضلة او المقارنة ـ وذلك اصح ـ فلا يجوز ذلك الا اذا حصرنا الامر في اطار الشعر المتعلق بالقضية الفلسطينية . وهنا نعثر على الحلقة المفقودة في سلسلة المناقشات . عندها ، قد يكون من الجائز ـ الى حد ما ـ القول ان الشعر العربي الذي يكتب في اسرائيل ، بشكل عام ، اقرب الى صدق التجربة والاصالة من غيره في تصويره صراع الانسان الفلسطيني . وكلمة « الصدق » لا غيرها هي الجديرة بتركيز الانتباه حولها في سياق المقارنة التي تمتد الى ميزات اخرى لهذا الشعر يفتقر اليها شعر القضية الفلسطينية الآخر . والحاحنا على عنصر « الصدق » هنا جاء ليعبر عن تحفظ فني . فالصدق ـ كما نعرف ـ ينتمي الى مجموعة الصفات الخلقية الحميدة ، ولكنه ، وان كان شرطا من شروط الادب الانساني ، ليس ضمانا لنجاح العملية الفنية ، ولا يمكن ان يكون ، وحده ، معيارا للنقد الادبي . واذا كان من الجائز تسجيل ملاحظة هامشية في مجرى حديثنا عن ميزة الصدق في حركتنا الشعرية ، فاننا لا نظلم احدا اذا لاحظنا ان المبالغة في تقدير شعرنا قد ادت الى ان يقوم بعض شعرائنا الناشئين بعملية تصميم قصائدهم وفقا لمقاييس غريبة عن الصدق ، وكأنهم يستوحون قصائدهم من تصورهم لكيفية استقبال تلك الاذاعة لها !.

وملخص القول انه آن الاوان ، لان توضع حركتنا الشعرية في مكانها الصحيح ، بصفتها جزءا صغيرا من حركة الشعر العربي المعاصر عامة . وذلك يستدعي تخلص الناقد العربي من الخضوع التام لدوافع العطف السياسي ، وحدها ، على اصحاب هذه الحركة ، فلا يكفي هذا الشعر انه يكتب في اسرائيل . ان وضع الحركة في مكانها الصحيح هو خير طريقة لنموها وتطورها لارتياد آفاق اوسع ، خاصة اذا تذكرنا دائما انها ما زالت في المراحل الاولى من الطريق الطويل .

طالعوا مجلة

آفاق عربية

مجلة شهرية سياسية اقتصادية ثقافية

تصدر في باريس

مطلع كل شهر

وتدافع عن قضايا العرب الحيوية

عنوانها

AFAQ ARABIA

5, Rue Joseph Sansbœuf

PARIS 8 eme - FRANCE